

Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human
and Social Sciences



مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية
والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

مفهوم الدولة والمجتمع في المشاريع السياسية للحركة الوطنية

*The concept of state and society in the Political Projects of the national
movement*

الوناس حمداني *Hamdani Lounes*

جامعة مولود معمري - تيزي وزو

Université Mouloud Mammeri Tizi -Ouzou.

lounes.hamdani@ummt.dz

تاريخ القبول: 2021-06-16

تاريخ الاستلام: 2021-02-11

الملخص:

يبحث المقال مشروع الدولة والمجتمع لدى تيارات الحركة الوطنية في الجزائر، خلال الحقبة الاستعمارية، حيث نحاول تحليل أهم الأطروحات والمواقف التي وردت ضمن أدبيات خطابها السياسي وتنظيمها الاجتماعي، على ضوء العقيدة الفكرية التي تستند إليها كل حركة. وذلك من خلال إبراز مسار التحولات السياسية التي تعرضت لها فكرة الكيان الوطني في سياق نضالها السياسي، وصراعها الاجتماعي مع مشروع الاستعمار الاستيطاني الفرنسي ثم الاستثمار في حيوية نقل هذا الرصيد التاريخي من الأفكار والنضال في التأسيس لميلاد مشروع الدولة الوطنية المستقلة.

الكلمات المفتاحية:

الحركة الوطنية، المشروع السياسي، الدولة الوطنية، الاستعمار الفرنسي، أزمة الشرعية السياسية، ...

Abstract:

The article examines the project of the state and society with the currents of the national movement in Algeria during the colonial period, where we try to analyze the most important theses and positions that were contained within the literature of its political discourse and its social organization,. And by appearing the path of political transformations to which the idea of the national entity was exposed in the context of its political struggle, and its social conflict with the French settlement colonial project. Then investing in the vitality of the capital of this historical common heritage of ideas and struggle in establishing the independent national state project

Keywords: National Movement ,Political projects, National State, French colonialism ,Crisis of political legitimacy,...

الرئيسية التي تراوحت بين الاندماج والاستقلالية. لأنها لم تكن مجمعة على رؤية موحدة للدفاع عن حقوق وقضايا المجتمع الجزائري بوسائل النضال السياسي في ظل " الشرعية الفرنسية " المنحازة لأقلية المستوطنين.

توضح دراسة المشاريع السياسية للحركة الوطنية المسار الفكري، والسياسي والاجتماعي لبروز إرهابات الكيان السياسي الوطني؛ كمجتمع يحتاج إلى تنويع سياسي قوامه الدولة الوطنية؛ ليحدد هذان المفهومين، حال تجسدهما في الواقع، جوهر الظاهرة السياسية والاجتماعية التي عايشتها قوى الحركة الوطنية من خلال خلفيتها الأيديولوجية وبرامجها السياسية وخطابها الاجتماعي.

تقتضي منهجية الدراسة الاعتماد على مقارنة تحليل سياسي متعددة المداخل تتعدى الوصف السطحي، وبعيدة عن السرد التاريخي الجاف للأحداث والوقائع، كما تتطلب

مقدمة:

لزالت عملية بناء الدولة الوطنية في الجزائر، في نموذجها " الدولة - الأمة"، حقلا خصبا للبحث والدراسة. كلما ازدادت حدة الأزمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية فيها، مما يدعو إلى تساؤلات كبرى حول قضايا السياسة والحكم والإدارة؛ والأكثر منها فهم العلاقة التي تربط المجتمع بالدولة، وتأثير نمط معين من الثقافة السياسية في رسم النشاط العمومي لها، وتوجيهه لإرساء أركان سلطة سياسية وتعزيز نفوذها عوض بناء دولة مؤسسات يحكمها القانون، حتى أصبح من يستحوذ على السلطة يشخصن الدولة، وينشئ شبكة ولاءات زبائنية لخدمة وجوده فيها.

حتى وان كان التاريخ السياسي الحديث للجزائر، لا يشكل المتغير الوحيد في تحليل المشروع الوطني، إلا انه يقودنا إلى تتبع بداياته الأولى مع مختلف تيارات الحركة الوطنية

سياسية كانت أو اجتماعية من خلال مطالعها وبرامجها، ثم الحكم على مدى نجاعة طرحها ومصداقية مسعاها أمام سلطات الاحتلال الفرنسي . يرمي تحديد مفهوم الحركة الوطنية إلى مساعدتنا على تتبع تشكيل اللبنة الأولى لميلاد المشروع الاجتماعي الذي تتمخض عنه هوية الدولة الوطنية ، والتي كانت تتويجا للطرح الوطني لدى التيار الاستقلالي والثوري ، على خلاف التيارات الأخرى التي كانت تعتقد أن "الشرعية الفرنسية" كفيلة بمنح الجزائريين حقوقهم وحفظ كرامتهم ، على غرار فئات المستوطنين المسيطرين على الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

فهناك من يرى أن الجذور التاريخية للحركة الوطنية تعود إلى فترة الثورات والمقاومات الشعبية ولا يعود ميلادها إلى عقد العشرينات من القرن العشرين، وإنما تلك فترة نهضتها وإعادة تكيفها مع الشروط الجديدة¹.

ينظر هذا التحديد للأحداث من منظور ردود الفعل فقط، ولا يحاول استدراك جدوى الحركة الوطنية في تلك الفترة، التي كان يتولى فيها زعماء القبائل وبعض الأعيان التعبير عن بعض المطالب الاجتماعية والسياسية الإصلاحية، بطريقة غير منظمة وإنما على سبيل التطوع لتشكيل عرائض ووفود إلى السلطات الفرنسية (الأمير خالد، حمدان خوجة...)، وبعد الحرب العالمية الأولى برزت الحركة الوطنية عبر تشكيلات سياسية واجتماعية بصورة منظمة لتأطير المجتمع بعد ازدياد تنامي الوعي في أوساط الجزائريين. إن وقع الحرب قد خلف تركة جعلت بعض الكتاب يصفون عقد العشرينات بأنه عهد النهضة في الجزائر، ويسميه البعض (...) بعهد الاندفاع الوطني، والاتجاه نحو الثورة السياسية... والإصلاح الديني والأخلاقي².

ينبغي النظر لكل الأنشطة التي تندرج في الصراع ضد الاستعمار من أجل البقاء والدفاع عن الوجود المستقل للمجتمع الجزائري، بكل قيمه وتقاليد، على أنها غدت الحركة الوطنية، مهما كانت نسبة النجاح أو الفشل. وهذا هو شأن ميلاد الوطنيات الأخرى؛ تبدأ على شكل حركات أدبية، أو فنية أو حتى مبادرات شخصية. وهكذا فإن الحركة الوطنية قد دُرست من خلال تعبيرها الثقافي ونضالها السياسي ونشاطاتها الاجتماعية ومقوماتها العسكرية³.

اتجه طرح نسقي، ثنائي المتغيرات ، بشقيه البنيوي والوظيفي للظاهرة السياسية التي تعبر عنها تيارات الحركة الوطنية؛ من حيث الرؤى ، والأفكار، والبرامج، والأيدولوجيات والعلاقات التي تترتب عنها. يتيح لنا هذا التناول استنتاج حجم التفاعلات القائمة التي تتحكم وتدير معظم المتدخلين من حيث المطالب والموارد في ظل صراع بين مجتمعين متناقضين بكل المقاييس. مما يجعل حقل الدراسة يستغرق آليا، إيجابيات المناهج الأخرى ؛ بغرض تمكين رؤية التحليل السياسي الرئيسية وتعزيز نتائجها على اعتبار أن الظاهرة السياسية ممتدة ومتقاطعة مع كل الأنساق التي تتركب كيان المجتمع ، و تطبع الممارسات السياسية . وحالة الاستعمار ومرادفاتنا تنأسس، كمتغير مركزي و ثابت، في منهجية التحليل السياسي، لتفسير خلفيات الصراع وأهدافه وأساليبه بل وحتى مستوياته وأطرافه المعلنين والمخفيين؛ وهي الحالة التي تختزل ضمن طرح وطني ثوري في مواجهة استعمار استيطاني وعنيف. أدى في نهاية المطاف إلى التأسيس لدولة وطنية مستقلة بعد حركة تحرير وطني منظمة وموحدة في كفاحها المسلح كما في عملها السياسي والدبلوماسي داخليا وخارجيا .

وبالتالي يمكن طرح الإشكالية التالية:

كيف نظرت الحركة الوطنية الجزائرية إلى مفهومي الدولة والمجتمع من خلال مؤشري حدود أطروحاتها وتأثيرها على ميلاد المشروع الوطني؟.

أولا: مفهوم الحركة الوطنية:

إن الحركة الوطنية الجزائرية، موضوع متشعب، وقضاياها لا تحظ بنفس النظرة لدى دارسها في المدرستين التاريخيتين: الفرنسية والجزائرية، حيث تبرز مشاكل منهجية موضوعية بحتة، وأخرى ذاتية، عند تقديم أي تحليل حولها؛ فمن أين تبدأ هذه الحركة ؟ وما هو مضمونها ؟ وما هي القوى التي تكونها ؟

وبالتالي تناول الحركة كمجهود شاركت فيه جميع التيارات دفاعا عن الكيان الجزائري؛ مستخدمة مختلف وسائل النضال السياسي المتاحة؛ كالانتخابات ، والصحافة والعرائض والجمعيات... مما يمكننا من تقييم كل حركة

نهضة ثقافية وسياسية إلا أنها أوقفت بسبب اندلاع الحرب العالمية الأولى 1919 لتستأنف بعدها.

وهناك من يركز على طبيعة الاتجاه ويفرق بين الاتجاه الإصلاح القانوني، والاتجاه الثوري الراديكالي. إذ يعتبر أنصار هذا التصنيف أن الذين طالبوا بذبوان الكيان الجزائري في الأمة الفرنسية لا يمكن إدراجهم ضمن الحركة الوطنية، لأنهم لا يؤمنوا بالجنسية الجزائرية التي تمنوا اختفاءها. " والمعيار المعتمد للترقية بين اتجاه ثوري وآخر إصلاحي لا يتم على ضوء البرنامج السياسي أو حول المسألة الاجتماعية؛ وإنما بالنظر إلى الوسائل والمناهج المستعملة لتحقيق الاستقلال.⁸

ويرى آخرون أن الحركة الوطنية تصنف على أساس إيديولوجي وسياسي وتتشكل من الاتجاهات التالية: 9:

- الاتجاه المحافظ ويتكون من الإقطاعيين المتعاونين مع فرنسا.
- الاتجاه المعتدل ممثلا في النخبة.
- الاتجاه الليبرالي الجزء الباقي من النخبة بعد انقسامهم.
- الاتجاه الثوري ويمثله نجم شمال إفريقيا.
- الاتجاه العربي الإسلامي وتمثله جمعية العلماء المسلمين الجزائريين،
- الاتجاه الاشتراكي الأممي ويمثله الشيوعيون الجزائريون.

وتصنيف آخر يقوم على أساس تنظيمي وقانوني: 10:

- الحركة الإصلاحية،
 - الحركة الحزبية،
- إلا أن أغلبية الباحثين يعتمدون تصنيفا عاديا، يقوم على القوى الفاعلة التي كانت تحتل الصدارة في النشاط والعمل المنظم، سواء كانت قوى اجتماعية أو سياسية ولذلك يكتفون بذكر الأحزاب أو التيارات التالية: 11:

- جمعية العلماء المسلمين الجزائريين،
- حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري،
- الحزب الشيوعي الجزائري،
- حركة الانتصار للحريات الديمقراطية.

هذا التصنيف الأخير هو الذي نتخذه موضوع دراستنا باعتباره يجمع بين مؤشرين هامين: هما البعد السياسي

وبذلك فإن الحركة الوطنية تعكس مطامح تشكيلات اجتماعية في المجتمع الجزائري تختلف في أدوات عملها نحو نفس الغاية تقريبا. " وهي كتعبير عن هذه التشكيلة الاجتماعية؛ مجتمع قادر على خلق قيم وآليات سياسية واجتماعية لضمان دوامه والتغير في ظل عالم متحول (...). إنها الوعي الوطني، و التمثيل السياسي، و الثقافي، والآمال الاجتماعية والاقتصادية للجماهير الشعبية (...). إنها إعادة تأطير المجتمع، بفضل إرادته الخاصة في الحياة. إذ تشكل الحركة الوطنية تعبيرا عن هذه التغيرات والتجديدات، تتكفل كليا بالمجتمع باعتباره إطارا للعمل، هدفها هو قيادة المجتمع إلى حماية هويته الشخصية والثقافية واستقلاله الوطني (...). وهيكلتها تعكس تنوع المكونات التي تتشكل منها في كليتها وكذا في اختياراتها..."⁴.

كل محاولة للضم أو الإدماج تكون مجازفة بدون نتيجة، لأن المجتمع يتمتع بقدرات مقاومة يستعملها في حالها بانتظام وفعالية. " أمام استيطانية الكولون عملت الإيديولوجية الوطنية على رسم حدود الجسم السياسي وذلك بتعزيز التضامن على أساس عرقي وديني وليس اقتصادي فقط."⁵.

تأثرت الحركة الوطنية بعدة عوامل، كانت بمثابة مصادر استمدت منها ما يلزمها لبناء نفسها، نذكر منها، تحديدا، العوامل التالية:⁶

- الاتصال المباشر مع الثقافة الأوروبية،
- تأثيرات الشرق الأدنى من خلال نداء الجامعة الإسلامية،
- التطورات العالمية كنتيجة للصراع بين الامبريالية والقومية .

تقاطع المؤثرات الخارجية بواقع الحركة الداخلي، أدى إلى طرح مسألة تصنيف الحركة الوطنية وفق معايير متعددة، فهناك من ينظر إليها على أساس تنظيمي وهيكلية⁷، بحيث يتم التمييز بين أشكال التنظيم القديمة، التي تعتبر تصورات كلية للمحافظة على الذات، انطلقت مسلحة وتراجعت إلى تبني أساليب التنظيم السياسي لمعارضة الحكم الفرنسي، أو الهجرة. و يدرج في هذه الأشكال حركة النخبة، ويقظة بعض العلماء المحافظين مما أدى إلى ميلاد وطنية قائمة على التصور الأوروبي للتنظيم السياسي والانضباط والضغط الاجتماعي. ولقد عرف هذا الصنف

خاصة في قسنطينة؛ حيث تكفلت جماعات من الطلبة الذين درسوا في المشرق العربي بتأطير الأفواج الأولى للحركة الإصلاحية مما يعتبر دعما بشريا مسبقا لبروز فكرة الإصلاح.

كما أن العوامل الخارجية المساعدة يمكن النظر إليها من منظورين مختلفين لكنهما متكاملين:

فوق **المنظور الأول** يمكن أن نقول أن ظهور الحركة الإصلاحية في الجزائر كان امتدادا طبيعيا للحركة الإصلاحية الإسلامية منذ جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، بل وحتى الحركة الوهابية في الحجاز.

وهذا تأثير معقول ومقبول من جميع النواحي نسبيا، لأن الفكرة الجوهرية هو خدمة الإسلام والنهوض بأهله. وبالتالي فدراسة بعض الطلاب الجزائريين في المشرق العربي ينظر له كعامل خارجي حاسم في الإسراع ببروز حركة إصلاحية، تعمل على حماية المجتمع من كل الآفات والأمراض والدفاع عن شعب مسلم يعاني التجهيل والحرمان .

أما **المنظور الثاني** الذي كان حافزا لتأسيس جمعية العلماء، فيدخل ضمن دائرة الصراع الحضاري الذي فهمه هؤلاء العلماء على أنه يتم على حساب المستضعفين الذين في غالبيتهم العظمى هم مسلمون. حيث أدوات هذا الصراع ومجاله وأهدافه تحدد بدقة متناهية، من قبل منطري الحركة الاستعمارية 13.

غياب التقدير الاستراتيجي لدى بعض الأطراف المدعوة لتأسيس الحركة الإصلاحية، هو الذي عطل ميلاد هذه المنظمة كتجميع لكل المحاولات الفردية وفق خطة عمل مدروسة بدقة بعيدا عن السياسة. فإذا كانت الفكرة واحدة وواضحة فإن تصور وسائل بلوغها لم يحدد بسهولة. يقول الشيخ البشير الإبراهيمي: "كانوا يلتقون على فكرة ولا يلتقون على نظام ولا في جمعية" 14.

اتسعت جمعية العلماء لتستوعب عدة تيارات، تختلف نظرتها للإصلاح من حيث الوسائل والأهداف، فمثلا الشيخ البشير الإبراهيمي كان يركز على التربية والتعليم وإعداد نشئ قادر على التغلغل في المجتمع بثقة بالفوز، أي تبعا لمراحل معينة ينبغي التدرج فيها.

للحزب أو المنظمة والبرنامج الذي يتولى انجازه و سترز عمليا طبيعة الدولة والمجتمع الذي يرمي إلى تحقيقه، كما تبينه المقارنة البسيطة بين هذه القوى السياسية والاجتماعية. لأن المشكلة ليست في التصنيف في حد ذاته، بقدر ما تكمن في المشروع السياسي والاجتماعي الذي تحمله هذه التشكيلة أو تلك؛ حيث تخفت هذه المشكلة نسبيا مع تكوين جبهة التحرير الوطني لمباشرة عملية التحرير بعد عقم النضال السياسي السلمي. ثم بعد الاستقلال تشهد بدورها هذه الإستراتيجية التحريرية تفككا، وكأنها عادت إلى تشكيلات لما قبل التحرير. كما تنضح معالم الحياة السياسية لعملية الانفتاح الديمقراطي بعد 105 أكتوبر 1989 ، وكأنها تشكلت على أثار الحركة الوطنية ، وان تباينت السياقات والتسميات إلا أنها تعيد إحياء الطرح الوطني وفق مقاربات سياسية وإيديولوجية مختلفة ومتعددة.

ثانيا : جمعية العلماء المسلمين الجزائريين :

يعتبر ميلاد هذه الجمعية نتيجة لعدة سنوات من العمل الدعوي والإصلاحي، بزعامة جماعة من الرجال على رأسهم الشيخ عبد الحميد بن باديس. تحاول الجمعية القيام بدور حركي في تنشيط كل فئات المجتمع الجزائري، ضمن أولويات تتحدد على ضوء البرامج التي أعدتها لهذا الغرض والتي هي في الواقع بعث لمشروع مجتمعي في وسط يتسم بصراع شامل غير متوازن مع المشروع الاستعماري.

لقد أدت عدة عوامل (خارجية، داخلية) إلى الترخيص من قبل سلطات الاستعمار لتأسيس الجمعية ونقتصر على ذكر أهمها: 12

- الاستفزازات الفرنسية في الذكرى المئوية للاحتلال مما أدى إلى تدمير واحتجاج الشعب الجزائري فكان الترخيص خطوة معتدلة للتخفيف من ذلك.
- وجود شخصية معتدلة على رأس مديرية الشؤون الإسلامية. (J.MERANT).
- ضمت الجمعية مختلف القطاعات، مصالحون، طرقيون، أصحاب زوايا، موظفون، علماء مستقلون، دون أن نتجاهل دور الصحافة الإصلاحية في إعداد القاعدة الاجتماعية للحركة الإصلاحية، وكذا النشاط التعليمي والعلمي الذي قامت به جماعة ابن باديس

ما تفهمه الإدارة بواسطة أعاونها الجاهلين أو الخادمين لأغراضهم الخاصة"¹⁷. كما طالبت ، بتشكيل مجلس إسلامي أعلى للمسلمين خارج وصاية الإدارة يتكون من علماء أكفاء أحرار، ومن بعض الأعيان المتدينين البعيدين عن مناصب الحكومة. وبعض الموظفين المتدينين بشرط أن يكون أقل من النصف، يتولى جميع السلطة التي كانت للحكومة في الشؤون الدينية.

وإذا كان بعض الكتاب، على غرار الأستاذ علي مراد، يعتبر ابن باديس مصلحا دينيا وليس مصلحا اجتماعيا، فإن هذا لا يعني أن ابن باديس هو جمعية العلماء، بل على العكس من ذلك طبع مرحلة هامة من وجودها بأسلوبه وفكرته في الإصلاح لا غير. فإن البعض الأخرى يرى أن ما أنجزته جمعية العلماء بريادة ابن باديس يمثل خير تمثيل للصورة التي يمكن أن تتخذها الدعوة إلى النهضة. فقد اعتمدت في أسسها النظرية العلم الصحيح والخلق المتين ونبذ الجمود، وترقية المسلم الجزائري في حدود إسلاميته التي هي حدود الكمال الإنساني، وحدود جزائريته التي يكون بها عضوا حيا عاملا في حقل العمران البشري، وحدود عروبته التي تمنحه مع الجزائرية والإسلامية والإنسانية الشخصية التاريخية الثقافية المميزة.¹⁸

لكن رغم هذا فإن العلماء إذا لم يكونوا ثورين مثل نجم شمال إفريقيا، ولا موالين لفرنسا مثل النخبة؛ لقد كانوا قبل كل شيء مصلحين وطنيين. 19 وإذا تعاملت الجمعية مع مشاريع الإصلاح المقدمة من قبل الإدارة الاستعمارية من باب قاعدة "خذ وطالب" ولاسيما مشروع "بلوم فيولت". كانت نظرة تفتقد إلى البعد السياسي.²⁰

هؤلاء العلماء الذين كان تعليمهم القيم لا تتوفر فيه جميع الشروط المطلوبة لكي يكون قالبا من قوالب تغيير المجتمع في جميع الميادين.²¹ وذلك يرجع إلى عدم تغطية الجمعية لجميع مظاهر الحياة العامة، واقتصار عملها على الصعيدين الثقافي والديني، ونظرت إلى الأوضاع الاجتماعية نظرة سطحية وطرحت المشكلة بكيفية غير سديدة.²²

يستحيل في نشاط جمعية العلماء، بداهة، تجاهل التأثير المتبادل والقوي بين كل من العامل الديني والعوامل الأخرى، فإذا كانت تدعي أن هدفها تربوي تعليمي فإن الأمر يتعدى

أما الشيخ عبد الحميد ابن باديس فكان يرى، صراحة، أهمية ذلك لكن لا يتورع في مهاجمة مواطن المرض والآفات وإسماع المغررين صوت الحق. ويجب اجتثاث ما رسخته دعاوي الطرقية الباطلة من اعتقادات فاسدة في أذهان العامة من الناس. وهذا الأسلوب يقترن فيه الفكر بالعمل. ومن ثم إعداد إنسان جزائري مسلم قادر على فهم ذاته التي هي منطلق كل تغيير، ثم المجتمع الذي ينبغي تطهيره من الأمراض ليعمل بانتظام وفعالية.

"ابن باديس كان يدرك جيدا نوايا خصومه من الطرقيين وموظفي الإدارة الاستعمارية في الكيد لمحاولته في التنظيم والعمل، لذا نجده احتواهم في مرحلة التأسيس في مكتب الجمعية، حتى ينال الاعتماد القانوني، ثم يتخلص منهم في المؤتمر الانتخابي الثاني لهيئة الجمعية في 1932. حيث دعي صراحة إلى العودة إلى سيرة السلف الصالح"¹⁵.

ويمكن إبراز الأهداف التربوية للجمعية فيما يلي:¹⁶

- إصلاح الفرد بتكوين شخصية متكاملة.
- إعداد المواطن الجزائري إعدادا كاملا للحياة.
- تجسيد مطالب العصر.
- المحافظة على الشخصية الجزائرية وتجديدها. (محاربة الاندماج، الطرقية، التجنس... أي الدعوة إلى المحافظة على المقومات والأخذ من المدنية الحديثة لبناء أمة تاريخية عظيمة، وهذا الأخذ يكون من أية أمة من أمم الأرض، دون عقدة، وبأي لسان، واقتباس كل ما هو حسن منها، ومد اليد على التعاون على الخير والسعادة والسلام.
- تكوين جيل جديد منهجه القرآن يكون أداة التغيير.
- الدعوة إلى الوحدة الوطنية؛ حيث يقول في البصائر (العدد: 3 ليوم 13-01-1936): "إن أبناء يعرب وأبناء مازنغ جمع بينهم الإسلام منذ بضع عشر قرنا، فيا عجب، لم يفترقوا وهم الأقوياء، فكيف يفترقون وغيرهم القوي".
- تحرير الفكر الإسلامي من البدع والخرافات.

كما طالبت باستقلالية الدين الإسلامي، ودعت إلى تطبيق مبدأ اللائكية من سلطات الاحتلال، وعدم تركه بين أيدي الإدارة وإتباعها الجاهلين وترى بذلك أن: "الدين هو ما يفهمه علماء الدين، لا ما يفهمه عامة المسلمين الجاهلة ولا

"... الأمة الجزائرية المسلمة موجودة ومتكونة كما تكونت ووجدت كل أمم الدنيا (...). ولها وحدتها الدينية واللغوية، ولها ثقافتها الخاصة وعوائدها وأخلاقها، بما فيها من حسن وقبيح، شأن كل أمة في الدنيا ثم أن الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا ولا تصير فرنسا ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد ولا تريد أن تندمج بها، لها إقليم محدود وهو الجزائر بحدودها"29. أو كما يقول مبارك الميلي أن ما يريده العلماء في الجزائر هو أن يكونوا، مسلمين كما يريدونهم دينهم و جزائريين كما تركبهم أجدادهم، لا تبديل لديهم الإسلامي ولا لطابعهم الوطني.30

يعبر خطاب العلماء اتجاه الاستعمار عن نقص في الفكر الإيديولوجي. وتحرير الإنسان ثقافيا واجتماعيا ليس بالضرورة يؤدي إلى التحرر السياسي. لأنهم لم يكونوا على جانب من الخبرة بوسائل الاستعمار في مجال الصراع الفكري (...). كما لم يكن لديهم من حدة المزاج وصرامة الإرادة ما يكفي حتى يتداركوا الموقف.31

بعد وفاة ابن باديس، ونظرا للفتاوت بين رجالها في الكفاءة وفقدانهم لروح المصالحة فيما بينهم وافتقارهم للواقعية، جعلهم يتعدون عن الوطنيين في حزب الشعب.32 وأصبحت الجمعية مجال صراع بين الجيل القديم والجديد وركود في الهياكل والتوجيه العام.33 رغم جهودهم الصادقة لم يستطيعوا أن يعبروا عن حساسية وطنية حقيقية. ولم يكونوا يمثلون نظاما أو نسقا فكريا قادرا على توجيه المجهود الوطني وجهة التغيير النوعي الذي باتت حتميته تزداد يوما بعد يوم خلال مسار التحرير، وحركة العلماء لئن استمرت في القيام بدور ايجابي في إحياء الثقافة الوطنية ورفع قيمتها إلا أنها وجدت نفسها مسبوقة بالتيارات التي كانت تركز أكثر على التوجيه السياسي.

لم تسمح السيطرة الأجنبية و الهياكل المفروضة للمصلح الإسلامي أن يمضي إلى نهاية المطاف ولم تكن حركة التجديد الحقيقي تتم بعيدا عن حركة الثورة السياسية التي تبرزت في الواقع الاجتماعي.34

إن الحركة الإصلاحية بقيادة جمعية العلماء إذا لم تستطع بلورة مشروع مجتمعي متكامل فإنها رغم الانتقادات

ذلك. "القضية الجوهرية هي التربية والتعليم، تربية النشء على فكرة صحيحة ولو مع قليل من العلم. وهذا المطلوب يشترط لزوما إيصال الخطاب السياسي".23

إلا انه يجب فهم نشاط الجمعية في السياق العام للاحتلال الفرنسي. فالاندماج السياسي عندها تحت السيادة الفرنسية وقوانينها يتلائم مع تأكيد الإسلام والقومية.24 يقبل العلماء الانتماء إلى الجهة العالمية التي تتكون منها الحضارة الفرنسية، ويقبلون الثقافة الفرنسية كمكمل للثقافة العربية.25 مطالبة العلماء بالمواطنة الفرنسية اعتبره هؤلاء تكتيكا للحصول على حقوق حتى يستطيعوا المطالبة أكثر.26

تركت هذه الرؤية خطاب العلماء بزعامة ابن باديس، يتسم بنوع من الواقعية العاطفية، إذ يقول في العدد الأول من مجلة الشهاب: "ولأننا مستعمرة من مستعمرات الجمهورية الفرنسية نسعى لربط أواصر المودة بيننا وبين الأمة الفرنسية، وتحسين العلاقات بين الأمتين المرتبطتين بروابط المصلحة المشتركة والمنافع المتبادلة من الجانبين تلك الروابط التي ظهرت دلالاتها وثمراتها في غير ما موطن من مواطن الحرب والسلام".27

هذا "التقابل التماثلي" بين الأمتين يبقى في حاجة إلى تبسيط معانيه السياسية والإيديولوجية. إذ يميز ابن باديس بين الجنسية السياسية والجنسية القومية؛ "فالجنسية القومية هي المقومات والمميزات التي يتمتع بها شعب معين وتشتمل على اللغة التي يعرب بها ويتأدب بأدابها والعقيدة التي يبني حياته على أساسها، والذكريات التاريخية التي يعيش عليها، وينظر لمستقبله من خلالها، والشعور المشترك بينه وبين من يشاركه في هذه المقومات، فبذلك فإن الأمة الجزائرية تتمتع بجميع المقومات والمميزات لجنسيتها القومية، وأنه من المستحيل إضعافها فيها، فضلا عن إدماجنا أو محونا".28

وأمام تمادي الإدارة الاستعمارية في تجاهلها للمطالب الإصلاحية التي تتقدم بها الحركة الوطنية بكل تياراتها، وتساعد تهجمات القوى الاندماجية على الشخصية الجزائرية نجد ابن باديس يصرح:

"تريبات الشبان المتخرجين من الجامعات الفرنسية والذين كانوا قادرين، بأعمالهم أن يصعدوا فوق الجماهير، وأن يضعوا أنفسهم في مصاف ناشري الحضارة الحقيقية".

تتم عملية التغيير، وتحويل المجتمع الجزائري إلى مجتمع حديث عن طريق جماعة النخبة لا عن طريق الفرنسيين، لأنهم نظروا إلى المجتمع الجزائري وكأنه المجتمع الياباني يطمح إلى التعليم في المدارس الأوروبية دون أن يفقد حضارته الخاصة³⁶. هذا التصور للقضايا الأساسية التي تحرك التدافع الاجتماعي لمجتمعين متناقضين يجمعهم فضاء جغرافي وإقليمي واحد، بامتيازات متفاوتة تقود في النهاية إلى الانتقال إلى نمط تنظيمي تتمرلح مطالبه وتقدم كرد فعل وليست كمبادرة، تضع برنامجها أمام حقائق التاريخ والحضارة، وبالتالي تعجز السياسة عن إقامة آليات ربط لنسيج اجتماعي يحقق التوافق والانسجام بين مجتمعين متناقضين في كل شيء.

لم يستطع المشروع الإصلاحى إلى غاية 1938 تحقيق وعوده، و نجد أقطابه يطالبون بالاندماج التام لتحقيق الأمن والعدل الاجتماعي. ورغم وعيم بما يجب أن يكون، هزمهم تناقض القانون الفرنسي بالنسبة للجزائريين، ولم يطالبوا لا بالوطنية ولا بمذهب انفصالي عن فرنسا ولم يعترضوا على أن تصبح الجزائر مقاطعة فرنسية، وادعى بعضهم بأنه ليس في القرآن ما يمنع المسلم أن يصبح فرنسيا.³⁷

ترى نخبة هذا التيار أن الدين الإسلامي قضية ضمير شخصي وليس قانون ينظم حياة المسلم³⁸ يشكل هذا التصور لمسألة الدين طرحا متقدما لتداول مفهوم لائكية الدولة، لأن نفس هذا التيار يقترح مجتمعا ذا أعرف وديانات متعددة، والتسوية إذا ما تمت تكون على حساب المسألة الاجتماعية، والتي تكون فيها الأبعاد الثقافية والعوامل الاقتصادية عناصر مميزة لإفشال وشل إرادة التعايش التعسفي، لمشروع مجتمعي يحاول التآليف بين مفارقات ماثلة بوضوح بين مجتمع جزائري خاضع بالقوة ومجتمع أقلية مسيطر ومهيمن على كل شيء. إنهم أرادوا أن يحولوا المجتمع الجزائري إلى مجتمع أوروبي (...). ونتيجة لذلك ضاعوا بين مجتمعين³⁹.

التي وجهت إلى نشاطها، فإنها هيأت المناخ لبروز فكرة وطنية ذات طابع إسلامي تستفيد منها فيما بعد حركة التحرير الوطني. ويتم التركيز على قيم الطرح الذي تقدمت به الجمعية مع ميلاد الدولة الوطنية كمشروع مجتمعي بديل للطرح الاستعماري، حيث يوظف النظام السياسي السائد خطاب العلماء الديني والثقافي بكل رموزه لترسيخ وتعزيز شرعية الحكم على أساس معالجة شعبية لتناقضات المرحلة الجديدة من بناء الدولة الوطنية.

ثالثا : حزب الإتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري (Parti de l'union Démocratique du Manifeste Algérien) :

ناضل القطب الإصلاحي بزعامة فرحات عباس، في إطار الشرعية الفرنسية عبر عدة مواقف وفترات تاريخية من أجل انجاز مشروعه السياسي، انطلاقا من مفهوم الثورة بالقانون، أي استعمال الديمقراطية الفرنسية للوصول بالمجتمع الجزائري إلى الحدائق الغربية. من الناحية التاريخية يمكن معالجة أفكار هذا الاتجاه، ضمن مرحلتين أو أكثر، بناء على التطور الجدلي الذي عرفته أطروحاته، وكذا حدة الصراع ضد التيارات السياسية الأخرى. إلا انه لا ينبغي تجزئة الفكرة إلا من حيث أهمية إبراز نشأتها ومصادر اكتساب مدلولها الاجتماعي وفلسفتها السياسية؛ في الدفاع أو المطالبة بإنجاز مشروع إصلاحى ضمن السياسة الاندماجية، ثم المساواتية الفيدرالية... أي إتباع تدرج إصلاحى..

ورغم أن المعارضة السياسية في إطار "الشرعية الفرنسية" لم تكن منظمة بشكل ملائم للرد على السياسة الفرنسية؛ فإن التزامات النضال السياسي دفعت ببعض النخب أو الجماعات التي تتمتع بمستوى ثقافي معين إلى الخوض في المسائل التي تهم المجتمع الأهلي. ويجب الإشارة إلى أن العمل الذي بني عليه الأمير خالد مشروعه الإصلاحى يكون مصدر تجميع وتوزيع لجميع قوى الحركة الوطنية، وعليه نرى أن جماعة النخبة أو كتلة النواب، ستعيد طرح القضايا الكبرى لبرنامج الأمير خالد في حدود الممكن، لاسيما فيما يتعلق بالمساواة والعدالة الاجتماعية والتزاوج بين الحضارة الغربية والإسلامية. وجماعة النخبة كما عرفها أحد أعضائها البارزين: هي:³⁵

إصلاحات جذرية للمشاركة في جهود الحرب ضد النازية الألمانية التي تحطمت أمامها المثل الفرنسية، وسمحت للنخبة الجزائرية المتأثرة بعظمة فرنسا ورسالتها الحضارية، إلى إعادة صياغة تصوراتها وفق المعطيات الجديدة التي تفرضها التغيرات الجديدة في العلاقات الدولية. مما يعني أن لعبة الكبار يمكن أن تخلق هامشا للمناورة لدى هؤلاء المستضعفين، عن طريق البحث عن حلفاء ولو ظرفين ليمنحوا قوة دفع مناسبة للتعريف بقضية الشعب الجزائري لدى الرأي العام الدولي؛ وفي هذا الاتجاه ورد مشروع محاولة الإتحاد بين القوى الوطنية لتقديم عريضة مطالب، تعرف بمطالب البيان بزعامه فرحات عباس، باعتباره المؤهل للعب دور المفاوض المقبول سواء لدى القوى الوطنية أو لدى السلطات الفرنسية وحتى لدى دول الحلفاء، الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا. إحياء أسلوب الإتحاد بين جميع القوى السياسية والاجتماعية للمسلمين الجزائريين بعد فشل تجربة المؤتمر الإسلامي لسنة 1936. تعود مرة أخرى مع ميلاد حركة أحباب البيان والحرية.

Mouvement des Amis de Manifeste et Liberté.

وحسب فرحات عباس أن الصيغة الحالية هي اشتراك جميع شعوب إفريقيا الشمالية في الأمة الفرنسية للاستفادة من التربية العلمية والتجهيز العصري، ومن تجربة الديمقراطية الجمهورية، واتخاذنا لهذه المبادرة، لأننا نعتقد أن لفرنسا دور لإنشاء وطن للأهالي الذي في يوم من الأيام يجد مكانه في محفل الأمم (...). ويعتبر الأمل (AML) تجمعا لرجال من كل التيارات لهم حول مشكلة الاستعمار وحول حله نفس الرأي. 44 أي الاتفاق على الحد الأدنى من المطالب للدفاع عن مبادئ الشخصية الجزائرية ويقبلون بحقيقة الأمة الجزائرية.

ويبقى هدف فرحات عباس، ليس القطيعة مع فرنسا وإنما الحصول على إصلاحات من أجل إنهاء الاستعمار العنصري؛ والغاية القصوى من نداء أحباب البيان والحرية الموجه للحلفاء هو الربط بين الإنعتاق السياسي للجزائريين المسلمين والتحرر من فرنسا. والمطالبة بنظام سياسي واقتصادي واجتماعي خاص بالجزائر، أساسه العدالة الاجتماعية، وإقامة ندوة تجمع النواب،

ولعل تصريحات وكتابات القطب الرئيسي لهذا التيار، والذي يمثله بامتياز السيد فرحات عباس، كأبرز الداعين والمدافعين عن الإيديولوجية الفرنكو-إسلامية خير شاهد على ذلك، إذ نجده يصرح في محادثاته مع وزير الداخلية الفرنسي "مارسيل ريني" في سنة 1935 ما يلي : «أنه على استعداد للتخلي عن قانون الأحوال الشخصية وقبول الإدماج، معتبرا ذلك السبيل الوحيد الذي بقي أمام الأهالي»، 40 بمعنى يريد تحقيق المساواة عن طريق الاندماج كموطنين فرنسيين كاملين الحقوق ومسلمين كاملين الحقوق، وهذا في نظره يقضي على الفوارق الاجتماعية ويحقق المواطنة للجميع.

لم يكن يؤمن فرحات عباس "بحوار مجتمعي" نظرا للضعف الثقافي والاجتماعي لدى المسلمين ورضي بالمنطق الجمهوري والتخلي عن الأحوال الشخصية من أجل المساواة و المواطنة، 41 بل أكثر من هذا ، ينكر وجود الأمة الجزائرية، ويعتبر الجزائر كوطن هي وهم، ويقول لو اكتشفت الأمة الجزائرية ساكون وطنيا ويؤكد الحقيقة الوحيدة وهي أن الجزائر مقاطعة فرنسية لا تتجزأ عن الأمة الفرنسية. 42

لم تكن المواقف السياسية لهذا التيار إلا تبريرية لواقع يصعب التعامل معه بعقلانية الوطنيين الثوريين، لأن تقديم تبرير سياسي ذي مرجعية عدمية وسلبية بالأحرى ، وإهمال كل الإرث التاريخي للجزائريين إنما يعني النضال على أرضية غير متأصلة لا حضاريا ولا تاريخيا.

«لقد أرادوا أن يبنوا مجتمعا قائما على التقدم والتسامح والمساواة، إن تعليمهم ونظرتهم الشعرية قد جعلت منهم محامين من أجل (يوتوبيا) لم ترى الضوء أبدا، كما جعلهم موقفهم المعتدل يبدو ضعفاء وغير مدعمين في عين الإدارة الفرنسية، ونفس الموقف عزلهم عن شعبيهم ولم يكسبهم ثقة الكولون أيضا». 43

باندلاع الحرب العالمية الثانية، عمق فرحات عباس تحليله للمجتمع الجزائري ، بعد أن كثف اتصالاته مع الوطنيين في حزب الشعب الجزائري والعلماء ، بحثا عن حل لقضية الجزائريين. تكون هذه المرة المبادرة من قبل جزائريين، مستغلين ظروف الحرب للضغط على سلطات الاستعمار للحصول على بعض التنازلات والشروع في

القوى الأخرى بسبب تماطل واضعيه واستخفافهم بمنح نفس الحقوق مقابل نفس الواجبات.

هذا الدستور هو بحث عن توازن بين شعبين مختلفين، أي يبحث حسب ليون بلوم عن تركيب بين الإدماج والإتحاد الفيدرالي، بإنشاء جمعية جزائرية ذات "كولاج" مزدوج تتكون من 60 أوروبي و60 مسلم.⁴⁹

يدخل نضال فرحات عباس ضمن إستراتيجية خاصة، تستمد مصادرها المعيارية من الفكر الديمقراطي الجمهوري، وذلك بواسطة استعمال أدوات ووسائل هذا الفكر، دون الاكتراث بالماضي الحضاري لهذا المجتمع الذي يطمح لتحقيق القيم والمثل العالمية التي للحضارة الفرنسية، عبر إنجاز مخطط إصلاحي يكون محوره المركزي العدالة الاجتماعية والمساواة المطلقة. ويطبق من أجل ذلك، خطوة خطوة؛ وهذا ما يعكسه فرحات عباس من خلال جريدته الجمهورية الجزائرية ليوم 03-09-1954 بحيث يرى أن هدف الإتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، هو الاسترجاع التدريجي للشخصية السياسية للجزائر وحققها في حكومة مستقلة، الإتحاد مع شعب فرنسا مصدر ازدهار وسلام لبلادنا. 50 هذا الطرح يشكل مقدمة لبدية بلورة مشروع مجتمعي، سياسي شامل لتجاوز أزمة الاحتلال إلى التعايش السلمي بين مختلف الفئات، أو التشكيلات الاجتماعية التي تتكون منها الجزائر، أي يقدم مفهوم الجزائر الجزائرية بديلا عن الجزائر الفرنسية والجزائر العربية.⁵¹ في كتابه ليل الاستعمار، يتحدث عباس فرحات عن هدف (U.D.M.A):

«لا اندماج، لا سيد جديد، لا انفصالية، شعب شاب، تقوم بتربيته الديمقراطية الاجتماعية، ينجز تجهيزه الصناعي والعلمي، يواصل تجديده الثقافي والأخلاقي، مشترك مع أمة كبيرة حرة، إنها ديمقراطية شابة ناشئة موجبة بفضل الديمقراطية الفرنسية، هذه هي الصورة والتعبير الأكثر دقة لحركتنا للثورة الجزائرية».⁵²

إذا كانت هذه الرؤية تمثل تصور الحزب كحركة سياسية لمشروع الدولة والمجتمع في الجزائر؛ فإنها تلغي الخصوصية المحلية، كمكون ينفي حضوره المكونات العرقية والدينية لباقي الأقلية الأوروبية (مسحيين، يهود)، رغم أن هذه المحلية تمثل الأغلبية العظمى لكنها مسحوقة،

والممثلين المؤهلين عن كل المنظمات الإسلامية والسلطات الفرنسية. 45 ولعل أهم المطالب الواردة في البيان هي: 46

-إدانة وإلغاء الاستعمار.
-تطبيق حق تقرير المصير.
-منح الجزائر دستورا خاصا يتضمن:

* الحرية والمساواة المطلقة دون تمييز عرقي أو ديني.

* إلغاء الملكيات الإقطاعية وتحقيق إصلاح زراعي.

* الاعتراف باللغة العربية بنفس الدرجة مع الفرنسية كلغة رسمية.

* التعليم المجاني والإجباري للجنسين.

* حرية العبادة وتطبيق مبدأ فصل الدين عن الدولة على كل الأديان.

* مشاركة المسلمين في الحكومة.

لكن رغم أن هذا النص حرر بأسلوب معتدل ويطلب باستقلال ذاتي في إطار الأمة الفرنسية إلا أنه رفض من قبل حكومة فرنسا بقيادة "ديغول" الذي اعتبره مساسا بالسيادة الفرنسية؛ ليُرد عليه بأمر 07 مارس 1944 الذي تضمن بعض الإصلاحات الشكلية في تقليد الوظائف والانتخاب. يلاحظ على النص: غياب المراجع للتقاليد العربية الإسلامية إلى الأمة العربية، كدليل على نقص تأثير حزب الشعب الجزائري والعلماء في تحرير النص. 46 وبعد فشل حركة البيان اقتنع فرحات عباس بعدم جدوى المسعى قائلا: «كل قاعدة للإصلاح ضمن الدولة الفرنسية هي متجاوزة».⁴⁷

ومع نهاية الحرب العالمية الثانية، وبعد مجازر وحوادث 08 ماي 1945، أسس فرحات عباس في منتصف 1946 حزبا جديدا تحت عنوان الإتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري (U.D.M.A)، ودعي في برنامجه إلى إنشاء جمهورية جزائرية مستقلة على شكل نظام فيدرالي، وتتعرف بالمواطنة المزدوجة، الفرنسية والجزائرية.

لكن هذا المشروع تم رفضه، رغم أنه فاز في انتخابات 1946 بـ 11 مقعدا من 13 مخصصة للدرجة الثانية من المسلمين. 48 أما القانون الخاص بالجزائر الصادر في 20 سبتمبر 1947 لم يستطع نيل تأييد حزب عباس فضلا عن

من الناحية التاريخية جاء ظهور الحزب الشيوعي، وكأنه وليد طبيعي للحزب الشيوعي الفرنسي الذي لم ينفصل عنه إلا في منتصف الثلاثينات (1936)، ولم يغير من خطابه السياسي كثيرا، واقتصر على تعديل الأوضاع وفق حلول يطغى عليها الطابع التقني المحض لأن الخيارات الإيديولوجية لا رجعة فيها بالنسبة إليه، الطرح الشيوعي يرتبط بثلاث حالات خاصة في معالجته لمفهوم الدولة والمجتمع في الجزائر:

أولا : من الناحية التاريخية نستعيد أهمية الأطر التنظيمية والهيكلية التي وفرها الحزب الشيوعي الفرنسي لميلاد حركة وطنية راديكالية فيما بعد، وهذه الحالة تؤكد مدى الالتزام السياسي الذي كان يبحث عنه الحزب الشيوعي لدى أفراد المجتمع الأهلي الخاضع؛ اعتبارا للظرف التاريخي المتميزة بانتشار الأفكار الاشتراكية عبر مختلف دول العالم.

ثانيا : فهي تلك الحالة التي تعني الارتباط التام والوثيق مع الحركة الشيوعية العالمية تحت وصاية "الكومنترن" السوفياتي. فرغم أن الفكر السياسي لهذه الحركة يبدو وكأنه في خدمة الضعفاء، إلا أن الممارسات تعاكس مقومات وشعارات هؤلاء الشيوعيين، لأن التحالف المزعوم ضد الامبريالية الرأسمالية تغذيه دوافع استعمارية بحتة : «فالحزب الشيوعي الفرنسي، بدلا من نشر الأفكار الثورية ضد الاستعمار في الجزائر (...) لم يستطع الشيوعيون أن يخلصوا أنفسهم من الإدعاء الاستعماري القائل أن الجزائر تمثل جزءا مكتملا لفرنسا»⁵⁵.

إذا كان الشيوعيون يرون أن استقلال الجزائر يتم عن طريق الصراع الطبقي ضد البورجوازية الرأسمالية وانتصار البروليتاريا في الدول الصناعية ولاسيما في فرنسا. فإن هؤلاء الشيوعيون الفرنسيون ردوا على "لنين" لما قال أن الشيوعية في الجزائر لا تقوم إلا بالاعتماد على حزب وطني؛ أن الوطنية لم توجد بعد في أوساط الأهالي الجزائريين، وأن الشيوعية لا يمكن أن تقوم في الجزائر إلا على جثة الوطنية.⁵⁶

اما الحالة الثالثة فهي تشكل النقطة المحورية في الموضوع ككل؛ تتعلق بالجزائر، ومع بروز حزب شيوعي جزائري هجين، مما يستدعي التساؤل عن طبيعة القطيعة التي حدثت على مستوى التصور والخطاب والاهتمامات.

ومن ناحية أخرى يقيم هذا التصور استدراكا لما يعتبر أن التحرر الحقيقي إنما يتم بفضل العمل والعلم ولا مجال للخوض في صراع ثقافي دائم مع المستعمر.

«يدعو فرحات عباس إلى الإصلاح ولم يكن شيوعيا، يحب كثيرا الديمقراطية، والجمهورية، ينتهي كثيرا للإسلام، ويستمتع للعلماء بزعامة ابن باديس، ويتحدث مع الآخرين دون أن يخسر شيئا (...) قدم للجزائريين المسلمين كيفية الخروج من الحنين إلى ماضي مجيد، دون السقوط في قبول القيم الغربية بدون تحفظ»⁵³.

رغم فشل مشروع الاندماج والمساواة والحكم الذاتي، إلا أنه لا يرجع ذلك إلى طبيعة الاستعمار ولا حتى إلى تنامي الوعي الوطني، وإنما إلى الأخطاء الفرنسية. فرحات عباس كان يبحث عن وطن في فرنسا، ثم مع فرنسا، ثم خارج فرنسا وبالتالي ضد فرنسا.⁵⁴

ويبقى أن حركة فرحات عباس رغم إخفاقات برامجها ومطالبه في ظل "الشرعية الفرنسية"، تشكل مدخلا تاريخيا هاما في تحديد معالم المجتمع الجزائري الأصيل فإذا كانت الديمقراطية الفرنسية التي أسس عليها فرحات عباس أماله الآنية والمستقبلية لم تكن لتجسد في الميدان بسبب طبيعة الاستعمار الاستيطانية، فإن مجهود هذا التيار قدم أدوات مناسبة لاختبار حقوق الإنسان والقيم العالمية التي تبلورها خطب رجال الفكر والسياسة لفرنسا كقوة عظمى.

تفسر أهمية الطرح الذي بلوره فرحات عباس تفسيرا غائيا بالنظر إلى المحيط الذي ظهرت فيه حركته السياسية، ومحدودية مجال تأثيرها، وكذا الدور الذي اضطلع به فرحات عباس شخصيا بعد انضمامه إلى حركة التحرير الوطني أثناء الثورة، حيث كان الرجل المؤهل لمباشرة مفاوضات مع فرنسا، لأنه مفاوض متزن بواقعية عند الدفاع عن البديل الثوري العنيف، بعد أن جرب ممارسة السياسة وجرب حيل قادة الاستعمار، ووقف على اليون الشاسع بين المثل الجمهورية وسياسات الاستيطان والقمع والقتل التي انتهجها حكام فرنسا.

رابعا : الحزب الشيوعي الجزائري (le parti Communiste)
: (Algérien)

لم تحن بعد قضية الاستقلال الفوري والتام في الخطاب السياسي الشيوعي لأن استقلال الجزائر العربية يعني سقوطها تحت السيطرة الأجنبية للامبريالية؛ وبذلك أعلنوا تأكيد رؤيتهم الإيديولوجية للشعب، بأن غالبية العظمى من المسلمين لم يبلغوا الحد الأدنى من النضج الذي يستحقون به ما يطلبه لهم الوطنيون.⁵⁹

لقد كان الحزب الشيوعي يبحث عن مجتمع جديد قوامه قيم المدنية الفرنسية تحت إشراف الأممية الشيوعية؛ لأن الحديث عن مجتمع جزائري ذي هوية متميزة في قيمه وعاداته لا وجود له. وينفي بذلك شبكة العلاقات الاجتماعية التي تربط أفراد المجتمع. وبالتالي يحاول عن طريق هذه النظرة التأسيس لمفهوم جديد يكرس الجزائر كخليط من الأعراق غير المتجانسة. وفي هذا الاتجاه يؤكد "موريس توريز" الأمين العام للحزب الشيوعي هذه التصورات ويحاول بلورتها كمشروع للدولة والمجتمع للجزائر إذ يصرح سنة 1939: «الجزائر أمة في طور التكوين».⁶⁰

لقد تقدم نواب الحزب الشيوعي ببرنامج عمل يتضمن القانون الأساسي للجزائر، تحت عنوان: "نحو الحرية والديمقراطية" أمام المجلس الوطني الفرنسي في 13 مارس 1947؛ حيث اعتبر المشروع الجزائر قطرا مشتركا مع الاتحاد الفرنسي والمساواة التامة، وحرية العبادة، فصل الدين الإسلامي عن الدولة وترسيم اللغة العربية، انتخاب مجلس جزائري من 120 عضوا بالتساوي بين الأهالي والأوروبيين، وإنشاء حكومة جزائرية ذات استقلال داخلي ذاتي، يتقاسم وظائفها بالتساوي المسلمون والأوروبيون، وهذا في إطار احترام الخاصيات الدستورية للجمهورية الفرنسية، تحت شخص ممثل الجمهورية الفرنسية. إنه من أجل بناء نظام ديمقراطي ضروري لتأمين تطور الجزائر، ومن أجل إتحاد أخوي وأمين للسكان الجزائريين والشعب الفرنسي.⁶¹

ونلاحظ كيف يتحاشى استعمال مصطلحات "الشعب" أو "المجتمع" مقابل "الشعب والمجتمع الفرنسيين"؛ يمكن القول أن إيديولوجية الشيوعيين الجزائريين ترمي إلى تحقيق ثلاث أهداف هي: 62

-حماية المصالح والسيادة الفرنسيين.

ولعل توقيت انفصال الحزب الشيوعي الجزائري عن الوصاية الإيديولوجية للحزب الشيوعي الفرنسي يأتي بعد محاولته الخروج من العزلة، بمشاركته في المؤتمر الإسلامي إلى جانب العلماء وحزب فرحات عباس، وهذا التقارب هو مؤشر يعطي إجابة عن طبيعة التحول الذي اعترضه، كسابقة تحدث لأول مرة، لتشكيل قطب سياسي يدافع عن مصالح المجتمع الأهلي ضمن الشرعية الفرنسية. لأن مطالب المؤتمر كانت اندماجية وليست استقلالية وجمعت تيارات إيديولوجية متباينة. ففي لائحته الختامية لمؤتمره التأسيسي المنعقد بين 17 و18 أكتوبر 1936 ورد ما يلي:

«نحن الشيوعيون نستمد كثيرا من التقاليد الجمهورية والثورية من الشعب الفرنسي ... فنحن هم الورثة المخلصون لأبطال الوطنيين الجزائريين، عبد القادر والمقراني وخالد».⁵⁷

فهل حقيقة أن الشيوعية تتناقى والوطنية، أم الحالة الجزائرية غير معيارية، تسقط من دائرة التحليل الماركسي للسياسة والاجتماع، باعتبار أن المنهج المستخدم في بلورة الفكرة يتميز بالخصوصية والسلبية في س المقارنة بين أكثر من حالة، وفي نفس السياق يؤكد بأنه وريث أبطال المقاومة الشعبية والوطنية. في هذه المواقف السياسية المتضاربة، تصبح هذه البطولات والنضال مجرد قلاقل داخلية تحدث ضمن الدولة الفرنسية لا غير. لأن الحقائق التاريخية تبين أن المشروع المقاومة الذي حاول بناءه الأمير عبد القادر، والمقراني، كان نابعا من عمق المجتمع.

رغم محاولة "جزارة" التأطير والتنظيم بل وحتى الاهتمام الأساسي للحزب الشيوعي الجزائري، إلا أن تواجد أغلبية ساحقة ومؤثرة في السياسة العامة للحزب من الأوروبيين حال دون بلوغ درجة الاستقلالية والتي حسب أحد الزعماء البارزين "عمر أوزقان" قال أمام المؤتمر العام للحزب الشيوعي الفرنسي (P.C.F) سنة 1936: «إن هذه الاستقلالية لا تكون قطيعة أو انفصالية، وإنما على العكس، في متناول الحزب الشيوعي الفرنسي الكبير مواصلة هذا الدعم، كما قال رفيقنا توريز Maurice Thorez نبل إجباري».⁵⁸

الغرض من المناسب منهجيا، معالجة المشروع المجتمعي لحزب الشعب عبر متغيرين متكاملين نفصل بينهما لضرورة توسيع مجال الدراسة، إلى عمق التراكمات التاريخية التي تمخضت عن نشاط هذه القوة السياسية: وهما:

-إيديولوجية الحزب. برنامج الحزب.

تشكل **الإيديولوجية** مصدر تجنيد قوي، لأنها غالبا ما تعتمد في بلورة الخطاب السياسي على ضوء مشاعر الوجدان العاطفي للشعب تجاه قضاياها المصيرية، لتدفعه للعمل المستقبلي والتحرك لكسر الركود. نحاول تحليل منابعها وأصولها، انطلاقا من مناقشة متغيرين أساسيين في تشكيل الأبعاد المذهبية للفكر الوطني عند هذا الحزب:

1-طبيعة الاستفادة التي حصل عليها الحزب من الحزب الشيوعي الفرنسي.

2-أسس الوطنية والاستقلال.

بدأت علاقة حزب الشعب بالفكر الشيوعي منذ أن كان النجم ينشط كفرع من فروع الحزب الشيوعي الفرنسي لما بين المستعمرات مما مكنه من اكتساب خبرة هامة في مجال تنظيم وهيكله نشاطات الحزب بعد انتقاله إلى الجزائر سنة 1937. فحسب أبو القاسم سعد الله النجم تسمية شيوعية وليست إسلامية⁶³.

كان التأثير بالفكر الاشتراكي واضحا لدى النجم (حزب الشعب فيما بعد) في أوساط الثلاثينات لما كان يطالب بتحديد حجم الملكية وتأميم القطاعات الكبيرة لعرقلة سياسة الكولون. رفض نجم شمال إفريقيا إيديولوجيات الأجنبية بدون تعديل ينسجم مع الأوضاع المحلية؛ وفي الثلاثينات أصبح بطل فكرة القومية العربية والجامعة الإسلامية بالإضافة إلى الوطنية، وقد أدخل النجم الفكرة الاشتراكية إلى الجزائر باعتبارها العلاج الوحيد ضد تسلط الكولون⁶⁴.

فعن حقيقة التأثير الشيوعي على الحزب فيما يتعلق بالالتزام السياسي، يرى مصالي الحاج الزعيم الكريزمتاني للحزب في مذكراته: « إن انتسابنا إلى الحزب الشيوعي كان عاطفيا، دون أن نعرف حقيقة إيديولوجيته، حقيقة أن جميع شيوعي هذه المرحلة كانت تغمرهم استقامة المعتقد، وكان ذلك يبدو في طريقة عيشهم، في ملبسهم وفي حديثهم

-القيام بإصلاحات شكلية ولا تمس جوهر المشكل (التحرر والاستقلال).

- عدم التسليم بوجود شعب جزائري موحد حتى لا يكون ذلك مبررا للتسليم بمطالبه الوطنية.

قلّ ما نرى " ظاهرة " شيوعية تعبر عن نفسها في حركة اجتماعية وسياسية تعارض المطالب الوطنية إلا في حالة الجزائر المحتلة في منظور الحزب الشيوعي. عندما تكون هذه الحركة ذات نزعة تابعة لقوى أخرى أكثرها تنظيما وهيمنة ولا تحاول بتاتا التجاوب مع واقعها الخاص؛ وليست القضية مرتبطة بالعدد أو التمثيل في الحزب الذي يغلب عليه العنصر الأوروبي، فالمواقف الشيوعية حول: الوطن، والشعب، والمجتمع، والدولة، والهوية، والثقافة، ... لم يتم الاعتراف بها أصلا لأنها تمثل عقبات كأداء في سبيل الرسالة التمديدية لفرنسا الاستعمارية، وإنما تحكمت فيها سياسة الاستيطان والقهْر، ويطغى عليه الانحياز الفاضح والتعلق بأمال وهمية كما تكرسها مشاريع الجزائر الفرنسية.

وبالنتيجة، نرى أن برامج الحزب الشيوعي الجزائري، لا تقدم مشروعا منطقيا لبناء دولة جزائرية وتصورا عقلانيا لتنظيم المجتمع. لم يتمكن من بلورة فكر وطني جزائري مستقل، متحرر وقادر على، استعادة سيادة دولته.

خامسا: حركة الانتصار للحريات الديمقراطية (Le Mouvement pour le Triomphe des Libertés Démocratiques) :

بدأت هذه الحركة السياسية نشاطها في أوساط المهاجرين الشمال إفريقيين بفرنسا تحت اسم "نجم شمال إفريقيا"، أو بالأحرى قبل ذلك، كمنظمة نقابية في أحضان الحزب الشيوعي الفرنسي، تعمل على تجميع وتنظيم أنصارها للدفاع عن مصالحهم المادية والمعنوية. وانتقال الحزب (النجم) إلى حزب جزائري خالص بعد انسحاب المغاربة (تونس والمغرب)، تخلص من أديبات النضال النقابي إلى الحزبي، مفضلا الوطنية على الشيوعية؛ ورغم أنه يعرف تحت تسميات: نجم شمال إفريقيا(تأسس في 1926)، حزب الشعب الجزائري تأسس في 1937)، حركة انتصار الحريات الديمقراطية(تأسس في 1946)، إلا أنه استمر بنفس البرنامج السياسي، الداعي إلى فكرة الاستقلال الشامل للجزائر عن فرنسا، وعمل من أجل ذلك بكل الوسائل. لهذا

نتيجة العلاقات الجدلية بين الظاهرة الاستعمارية والواقع الوطني للمجتمع المستعمر»⁶⁹.

يمكن القول إذن، أن فكرة الاستقلالية والوطنية تكفي لكي تكون برنامجا لهذه الحركة. في ديسمبر 1951، أصدرت اللجنة المركزية لحركة انتصار الحريات الديمقراطية، ما يعرف بالميثاق القيادي، حيث يحدد فيه الأسس العامة التي تقود الحركة الوطنية وحصرها في اثنتين هما: **الوطنية؛ والديمقراطية.**

ويقدم تحليلا مستفيضا يخدم به مرجعيته، ويفرق بوضوح بين الوطنية التي يدافع عنها ووطنية الاستعمار، ويعطي للأولى صفة الوطنية المحررة، وللثانية الوطنية القاهرة:

«وطنية النوع الأول فهي وطنية الحركة الوطنية الجزائرية مثل باقي الشعوب المضطهدة، إنها رد فعل ضد التعدي على السلامة الوطنية، وهو عمل ضد الإلحاق وهو تأكيد قوي لإزادة هذه المقومات، إنها وطنية محررة (...) إنها جوهر الديمقراطية لمحتواها وجوهر الثورة بمقصدها الذي هو تفتح الأمة على أسس عادلة (...) لأنه حينئذ تتعاطى سيادتها الكاملة، تعبر بحرية وتتكلم بلغتها، وتتمتع بحرية ضميرها وتعيش من خيراتها أرضها، مالكة زمام أمرها (...) هي إرادة الكفاح لتحرير السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي للشعب الجزائري (...). إذن الوطنية الجزائرية هي عبارة عن رفض دعوة مستحيلة الوقوع هي دعوى الاستعمار: "الجزائر أرض فرنسية" لأنها دعوى خلاف التاريخ، وخلاف الحق المقدس للشعوب، هي التأكيد الجازم أمام محاولات الاستعمار العديدة، محو الجنسية الجزائرية، المحاولات التي منها رفض الاعتراف بالجنسية الجزائرية، وتخصيص الجزائريين بالكلمات التي يراد بها احتقارهم "كلمة الأهالي" *Indigenes*» وهي كذلك عبارة عن وجود الأمة الجزائرية بذاتها وأخيرا هو حق الشعب الجزائري في أن يكون ذو سيادة حرا سعيدا»⁷⁰.

والأساس الثاني الذي تبنى عليه إيديولوجية الحركة الوطنية الاستقلالية هو مبدأ الديمقراطية؛ وهي فلسفة نظام اجتماعي، آلية سياسية لتسيير الشؤون العامة. بل وقبل ذلك ثقافة سياسية، وقيمة مدنية، يطبعها التفتح والاحترام المتبادل بين جميع القوى الاجتماعية التي يفرزها المجتمع؛

عن إيمانهم الجديد، وهم في ذلك يشبهون المسيحيين الأوائل، ولكنني لم أكن في هذا الاتجاه، فقد كان الإسلام دائما يغمر قلبي وينعش كل كياني»⁶⁵.

ففي لائحة المؤتمر الثاني لحركة الانتصار للحريات الديمقراطية الختامية في أبريل 1953: رفض فيها الحزب جزائر حرة يحكمها الرأسماليون وحدهم، كما رفض التقرير النهائي التحليل الطبقي الاشتراكي أخذا في عين الاعتبار الظروف الحالية إلى عدم الاستناد إلى الشيوعية وإلى المادة بل إلى الوطنية الجزائرية⁶⁶.

يعتبر حزب الشعب الجزائري أول حركة وطنية جزائرية تنادي بالاستقلال التام عن فرنسا، وإقامة جمهورية جزائرية، لأنه يرى أن الاستقلال أمر طبيعي لكل الشعوب؛ حيث يقول مصالي الحاج: «إن الاستقلال ليس هو أمر طبيعي فقط، راسخ في قلب كل مسلم جزائري، وإنما هو حق لنا، ... إنني أحب وطني ولغتي وتقاليدي الإسلامية، وإني أعمل لأخرجه من هذه الحالة التي لا تطاق، وهدفي أن يستمتع الشعب الجزائري بفضل علمه وثقافته، بثرواته أرضه، وأن يسعد بحريته نهائيا»⁶⁷.

يقف حزب الانتصار دون عقدة أمام الخطاب الاستعماري ليدافع عن بديل خاص بالمجتمع الجزائري، أبعاده تتناقض كليا، مع مقومات المجتمع الفرنسي؛ ويحاول التعبير عن هذا النموذج في ثنائية غير منسجمة في وجودها الحضاري ومتعارضة في نظرتها للأفاق المستقبلية. «الفرنسية ضد الجزائرية، الاندماج ضد الاستقلال، الأمة الفرنسية ضد الأمة الجزائرية، سياسة الإصلاحات ضد الكفاح والعمل، اللاتينية ضد العروبة، المسيحية ضد الإسلام»⁶⁸.

الاستقلالية والوطنية هنا، لا تقوم على العنصرية أو التعصب بقدر ما هي رد فعل يوازي درجة الإنغراس العنيف للظاهرة الاستعمارية في الجزائر. وعليه فإن أنصار التيار الاستقلالي لم يكونوا منتجي تطرف في الفكر السياسي الحديث وإنما استجابوا استجابة منطقية لنداء الذات المقهورة والمستغلة استغلالا عنصريا، فحسب أحمد محساس: «كانت الوطنية شائعة في وقائع المجتمع الثقافية، قبل أن تعبر عنها جماعات معينة أو منظمة سياسية محددة، وجاءت صياغتها الحديثة، ونشرها كأداة نضال

إن المشروع الوطني لحركة الانتصار، إذ كان يشكل بديلا عن المشروع الاستعماري فان تعرضه لأزمات حادة أدت إلى اهتزاز شرعية تمثيله للخط الوطني الاستقلالي الراديكالي.

إذ ما اصطلح على تسميته بالأزمة البربرية، وأزمة القيادة (بين المصاليين والمركزيين) تعتبر في نظر الكثير من المحللين، أنها كشفت عن عمق الشرخ الذي أصاب كتلة الوطنين في برنامجهم كما في مشروعهم الاجتماعي لمستقبل الدولة المستقلة القادمة. الأزمة البربرية (1947) هي مؤشر عن بعض نقاط الضعف الإيديولوجي للمشروع الاستقلالي، لأنها أزمة هوية تحت غطاء اختلاف سياسي؛ ويمكن رد ذلك إلى وجود تصورين لدى الحركة في بناء الدولة الأمة في الجزائر:

تيار يريد لها عربية إسلامية وهو طرح مقابل لمفهوم العلماء تبناه تيار داخل الحركة بزعامة مصالي الحاج، وتيار آخر يريد أمة جزائرية فقط ويرفض الانتساب إلى الأمة العربية الإسلامية؛ مما فتح الأبواب أمام ازدياد الشك والريبة في صفوف الحركة .

كان دافع زعماء هذه الخطوة الانقسامية وطنيا في أول الأمر، بعد اشتداد القمع ضدهم في منطقة القبائل اثر أحداث 08 ماي 1945 حيث تشبثوا بالجبال وأصبحوا قلقين، وقرروا الثورة لكن القيادة في الحزب لم تقرر أي شيء، لذا وجدوا في هذه الأمة فرصة للتعبير عن آرائهم السياسية من منظور عرقي بربري لدى البعض منهم. «كانت فكرتهم تبدو عليها آثار الإيديولوجية الكولونيالية والشيوعية السوفياتية التي اقتدوا بها كنموذج للحكم يضمن لكل قومية المحافظة على خصائصها الثقافية ولغتها وتستفيد من نظام الحكم الذاتي في تسيير شؤونها»⁷⁴.

تعود جذور النزعة البربرية إلى سنة 1945 لما طالب أحد اعضاء الحزب من لجنة التنظيم في الحزب لتوحيد الناطقين بالبربرية في منطقة واحدة، لكن فكرته رفضت من طرف القيادة، ثم أن هذه النزعة غدتا فيدرالية فرنسا باعتبار أعضاء هذه الأخيرة ذوو ثقافة فرنكوفونية، والبعض منهم يجهل تماما الثقافة العربية الإسلامية، وتجراً بعضهم حتى الدعوة إلى تأسيس حركة شعبية بربرية منددين بقيام الجزائر عربية إسلامية.⁷⁵

على الأقل هذا التحديد يتطابق ووجود مجتمع متجانس حضاريا ويتمتع بنسبة عالية من الاستقرار.

بحيث تم تعريف الديمقراطية بالهدف من الوثيقة السابقة الذكر: «مشاركة الشعب في حكومة الوطن وفي التسيير العمومي والمحلي لجميع الأمور ومراقبته الدائمة من أجل احترام الحريات الأساسية (...) ومن أجل نظام اجتماعي عادل (...) وديمقراطية ثقافية لتطوير شخصية الشعب وتطوير جميع العقول والفهوم»⁷¹.

نصت قرارات مؤتمر الحركة (4-5-6 أفريل 1953) أن الدولة الوطنية الجزائرية تقوم على خمسة مبادئ:⁷²

1-الديمقراطية (من الشعب وإلى الشعب) الشعب مصدر السيادة.

2-الجمهورية شكل للحكم.

3-الرخاء الاقتصادي والعدالة الاجتماعية.

4-احترام العقائد الدينية وفقا للروح والتقاليد الإسلامية.

4-ثقافة وطنية متصلة بالثقافة العربية الإسلامية.

ومن جهة أخرى، فإن حزب الشعب، أو حركة الانتصار فيما بعد، إذا كان يريد ربط علاقات مع الجميع دون عنصرية، أو عرقية، أو تفاضل ديني، فإنه في الحقيقة الحزب الوحيد في الحركة الوطنية الذي لا يقبل انضمام عناصر غير ذات جنسية جزائرية إسلامية. ثم أن شروط العضوية في الحزب، بعد أن يحددها في قبول الإيديولوجية والمذهب، البرنامج، النظام الداخلي، والانضباط، النقد الذاتي، يضيف عبارة شرطية لا تتحقق الشروط السابقة إلا بها وهي: أن يكون العضو يتمتع بسيرة تطابق المبادئ الإسلامية⁷³.

في الواقع أن المميز الأساسي في الهوية الوطنية الجزائرية، هو الدين الإسلامي باعتباره بوتقة تنصهر فيها الفوارق الاجتماعية؛ وبذلك يشكل الفاصل في تحديد هوية الفرنسي عن الجزائري، ويقال لهذا الأخير "المسلم والمسلمين" لذا ينبغي التساؤل عن هذه الإشكالية بنوع من الاهتمام والتركيز على ما يمكن أن يلعبه هذا العامل في مواكبة مسيرة التحرير، بل وحتى البناء في ظل الدولة الوطنية.

الخاص والمستقبل، ويحدد الأهداف الإيديولوجية في نقطه الثالث : السياسية، الاقتصادية والاجتماعية، ومن الناحية المذهبية لا يوجد مذهب يحدد في كفاحن طبايع وطنيتنا وثوريتنا والوسائل العامة للكفاح بتجديد عقلية أسلوب العمل وعقلية إنتقادية بناءة»⁷⁹.

يصل المشروع المجتمعي والسياسي للحركة إلى قمة التأزم، بتقاطع أزمة الشرعية على مستوى القيادة، وأزمة الهوية والثوابت التي يبني عليها المجتمع الجزائري، إنه مشروع وطني يعوزه الانسجام، حيث تتحكم فيه ضغوط إرادة الكتلة الجماهيرية في صنع الخطاب الثوري لمواجهة العدوانية الاستيطانية والاستعمارية وحلفائها من المستوطنين وأتباعهم من الجزائريين؛ الأمر الذي أدى إلى عرقلة مسار تحريك العمل السياسي نحو مثل عليا والارتباك في تسطير المستقبل دون التعرض لازمات دورية في فلسفة الحزب كمنطلقات للنضال وأهداف للتحرير.

يؤدي الغموض في الإيديولوجيا إلى ربط مؤشرات الحقل السياسي العام بعراقيل تنتجها صراعات الدوائر الداخلية للحزب؛ مما يجعل البديل المطروح مغيبا، إلا مع بروز أنصار محايدون يعملون على الوصول بالمشروع الثوري إلى غايته، مع إعلان بيان أول نوفمبر 1954 وانطلاق العمل المسلح والقضاء نهائيا على الروح الإصلاحية المترددة.

رغم كل الانتقادات الموجبة لحركة الانتصار سواء على مستوى العقيدة السياسية او البرنامج او الخطاب ، فإنها شكلت من دون منازع مركز الاستقطاب الثوري لأغلبية الجزائريين في الدفاع عن كرامتهم وفرض نموذجهم السياسي والاجتماعي لدحر المشروع الاستيطاني لفرنسا الاستعمارية. واثبت التاريخ فعالية الطرح الوطني الجذري الذي تبنته الحركة ، مما جعلها تجبر باقي الحركات السياسية للاختيار بين نهجها الثوري المسلح والروح الإصلاحية، مشترطة عليها الالتحاق بمشروع جبهة التحرير الوطني بصفة فردية وليست تنظيمية او حزبية .

خاتمة

لقد جعلت طبيعة الاستعمار الاستيطانية نشاط الحركة الوطنية ، ينقسم إلى تيارين بارزين ؛ الأول يمثل

لقد تصدت القيادة بصرامة لهذه المحاولة الانقسامية ووصفتها بأنها مؤامرة مدبرة من دوائر الاستعمار وكيفتها على أنها انحراف تعسبي ملون بالصبغة العنصرية والنزعة الشيوعية⁷⁶.

أصبحت مقومات الهوية، موضوع جدل؛ لن تستطع الإيديولوجيات الوطنية بمشروعها الاستقلالي إيجاد تسوية مرضية لها ، من أجل الوصول إلى تحرير البلاد الشامل؛ وأدت بالتالي إلى تعارض الخصوصية المحلية مع ذاتها في أشكال فئوية وجهوية وانفصالية... ومهدت لأول مرة بإظهار مبدئي "اللانكية والعلمانية" كرايين تكون لهما مكانة في النقاش السياسي والفكري؛ مع تقديم الاحترام الضروري للدين كسلوك وقناعات شخصية لا مجال لتدخلها السياسة؛ إلا في نطاق ضيق محدود يخص تواريخ معينة.

لتدارك الأمر، وتجاوز حالة الأزمة التي سعت بعض الأطراف إلى تصعيدها، عبر مناضلو منطقة القبائل أثناء زيارة ممثل الحزب في مارس 1946 بقولهم : «لسنا ضد الإسلام، إننا نعيش يوميا، أسى قيمه المقدسة، لكننا نعارض التعصب الديني كعامل للتكوين السياسي»⁷⁷.

تدل الأزمة البربرية بوضوح على أن قيادة حزب مصالي الحاج، لم تقدر على الحسم في القضايا المصيرية، فبغض النظر عن شرعية المطلب البربري من عدمه، فإن القضية لا تنتهي لمجرد تسويتها بأي طريقة كانت، وعليه فإنها تتجدد في مواعيد لاحقة، وتضممر مخاوبا تهدد الوحدة الوطنية وتمزق النسيج الاجتماعي، وتصبح ثوابت المجتمع موضوعا للمزايدات السياسية، لأن التنوع الثقافي لم يستخدم كمكمل للأبعاد الأخرى، وإنما احتكر في مواجهة هذه الأبعاد بطريقة انطباعية وعاطفية.

نالت حركة الانتصار، دعم القوى المهمشة من قبل النظام الاستعماري مقابل مطلب أقصى يتمثل في الاستقلال، هذه القوى لا تدري أي مجتمع تطالب به، ولا تملك نظرة إستراتيجية واضحة لتحقيق الاستقلال⁷⁸.

ففي لائحته الختامية للمؤتمر الثاني للحركة (ح.إ.ح.د) (4-5-6 أبريل 1953) يوضح ما يلي : «يعترف بعدم اهتمام الحزب بإقامة مذهب عام يحدد بدقة وسائل وطبيعة كفاحه

إلا القبول بأحد البديلين لا أكثر ؛ إما الخضوع لإرادة المستعمر والرضا ببعض الإصلاحات الشكلية والفئوية والتي كانت دائما في خدمة المستوطنين ، أو انتهاج المقاومة السياسية والتحضير في الوقت نفسه مستلزما البديل الثوري العنيف سرا .

لقد فشلت اغلب أحزاب الحركة الوطنية في تحقيق أبسط مطالب الشعب الجزائري ، مما أعطى التيار الاستقلالي الثوري الذي يمثله حزب الشعب الجزائري من دون منازع شرعية الموقف والرأي ، والذي تبنته وسارت عليه حركة التحرير الوطني بقيادة جبهة التحرير الوطني فيما بعد . حيث كان له القول الفصل في بلورة الطرح الوطني الشامل لمفهوم الدولة الوطنية المستقلة بعد إن انظم إليه رواد الحركة الوطنية الذين كانوا يستعدون الخيار الثوري العنيف ويثقون في السياسة والساسة الفرنسيين ، إلا إن الإيديولوجية الوطنية تأسست على قيم ورؤى التيار الاستقلالي، ولم تستطع التخلص من تلك الأفكار حتى وان غاب أقطابها لتبقى أثارا تلاحق شواهد الحياة السياسية إلى غاية الآن.

وعليه ، فإن المشروع السياسي المنتصر ، كان أولا وقبل كل شئ بديلا مجتمعيا يستمد كيانه من حجم التضحيات المقدمة في سبيل فرض الحقوق وانتزاعها من قبضة المستعمر. بالإضافة إلى تبني شرعية الاختيارات الرئيسية التي سار عليها أنصار البديل الاستقلالي ، حيث استطاع تجاوز كل الأزمات الداخلية التي عصفت بالمشروع الوطني الأصيل الذي احتضنه هذا التيار. ولعل أخطرهما هي أزمة القيادة والتي تتعلق بممارسة السلطة في الحزب ، ونتيجة لنشاط التيار على قاعدة اجتماعية واسعة ومتشعبة بالقيم الوطنية الحقيقية ؛ قضى على روح الزعامة وعبادة الشخصية وحكم الفرد ، وهي في نهاية المسار تشير إلى نموذج حركي في تأسيس شرعية سياسية تقوم على رأي الجماعة والمداولة بالأغلبية في صناعة القرار وإدارة الشأن العام .

احتوت العقيدة السياسية للاتجاه الاستقلالي على طبيعة الدولة ونموذجها السياسي والاقتصادي ، وهويتها الثقافية لتبدو الممثل الشرعي والوحيد للمجتمع . حيث أقامت أركانها على ترسيخ الطرح الوطني كمرجعية عامة

الاتجاه الإصلاحي ويتكون من حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري ، والحزب الشيوعي الجزائري ، ويذهب هذا الاتجاه إلى حد المطالبة الصريحة بالاندماج التام في المجتمع الفرنسي ، وتضاف إليه جمعية العلماء ، كجمعية ثقافية ودينية تبني الإصلاح وترفض الاندماج . أما التيار الثاني فيمثله الاتجاه الاستقلالي أو الثوري بقيادة حزب الشعب الجزائري، والذي حتى وان خاض أحيانا النضال السياسي والإصلاحي فإنه كان مجبرا على ذلك للتعريف بأفكاره وأساليبه .

كان صراع قوى الحركة الوطنية مع سلطات الاحتلال من اجل البقاء ورفع الظلم عن الجزائريين ، المضطهدين في عيشتهم ، والمسلوبين في كرامتهم وهويتهم ، والمنبوذين في ثقافتهم ولغتهم ، والمحرومين من ممارسة إسلامهم ، الذي أصبحت تتصرف فيه الإدارة الاستعمارية بالمصادرة والضغط والقمع وتفويض أتباعها لتمثيله بما يناسب سياستها الاستيطانية على مرأى من الأغلبية المسحوقة .

لم تكن تخرج مطالب التيار الإصلاحي بكل رموزه عن المساواة في الحقوق والواجبات بين الفرنسيين والجزائريين واحترام خصوصية المجتمع الجزائري المتمثلة في الدين واللغة والأعراف والتقاليد إلا انه لم يحقق أدنى حد منها ، منذ أرضية المؤتمر الإسلامي سنة 1936 وصولا إلى مطالب أحباب البيان والحرية سنة 1942. بل العكس هو الذي حصل حيث ازدادت موجات القمع والاضطهاد ضد الشعب الجزائري وخاصة ضد المناضلين السياسيين مما أعطى المزيد من المصادقية والشعبية في تجذير الطرح الوطني الثوري الذي ما فتئ ينادي به التيار الاستقلالي ؛ الذي يكرس لاحقا طبيعة الدولة وتنظيم المجتمع كمشروع مستقبلي ضمن بنود بيان أول نوفمبر 1954 ، كإطار عام للعمل وبناء الدولة الوطنية ذات السيادة ، بعد حركة تحريرية ثورية استطاعت ولو مرحليا إقناع عناصر التيار الإصلاحي بالانضمام إليها كمجهود جماعي لتحقيق هدف واحد هو الاستقلال والذي كان يشكل في نظرها الأداة المثلى لتأسيس الدولة الوطنية .

ما يمكن ملاحظته في أفكار وخطب تيارات الحركة الوطنية ، أنها لم تتطور في ظروف عادية بل تحكمت فيها مقتضيات المنطق الاستعماري ، وبالتالي لم يكن متاحا لها

1- Ahmed Mahsas, *le Mouvement révolutionnaire en Algérie de 1^{ère} guerre mondiale à 1954*. éd. Barakat. 1990.P.6.

2- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية (1900-1930)، الجزائر: المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزء الثاني، ط3، 1983، ص 303.

3- نفس المرجع، ص12.

4 Ahmed Mahsas, *le Mouvement révolutionnaire en Algérie*. Op. cit. pp.5-7.

5 Lahouari Addi, *L'impasse de populisme : L'Algérie : Collectivité Politique et Etat en construction*. Alger :ENAL,1990..P.78.

6- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية (1900-1930) مرجع سابق 197.

7- نفس المرجع، ص 439.

8-Lahouari ,Addi.Op.cit. pp.48-49et 75.

9- ابو القاسم سعدالله ، الحركة الوطنية الجزائرية. مرجع سابق ، ص305.

10- احمد محساس ، " التعليم والثقافة في الجزائر خلال الحقبة الاستعمارية " مجلة الثقافة، عدد85،يناير-فبراير 1985، ص 204.

11/- Abderahim,Lamchichi.L'Algerie en crise :Crise économique et changement politique . Paris ,éd.l'harmatan , 1991,pp.72-73.

12- احمد الخطيب ،جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحية في الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب،1985، ص ص.112-113.

13- عقد اجتماع في باريس ضم كتابا وجزائرات وسفراء سنة 1927 لدراسة "محور الإسلام والسياسة المعاصرة" حيث قال أحد المتدخلين "يجب أن ندفع بالأفارقة إلى التحدث بلغتنا وتبني بعض مناهجنا، وأفكارنا، والدوبان فينا، شيئا فشيئا" في: بوعلام بسليح. "ابن باديس رجل علم وفكر ومصطلح ديني"، الثقافة، العدد98، مارس-أفريل 1987، ص ص 8-9.

14- أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحية في الجزائر. مرجع سابق ص97.

15- نفس المرجع ص 114.

16- أحمد الخطيب، مرجع سابق، ص 125-131.

17- عبد الرحمان بن عقون بن إبراهيم، الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر:الفترة الثالثة 1947-1954، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب ج3، 1986، ص 70.

18 أحمد الخطيب، جمعية علماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحية في الجزائر، مرجع سابق، ص ص 224-225.

19-أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية (1900-1930). مرجع سابق، ص 430.

20- Ben Youcef Ben Khedda, *Les origines du 1^{er} Novembre 1954*, Alger, éd. Dahlab, 1989, P.34.

ومشتركة لدى المجتمع السياسي كما لدى المجتمع المدني. لكن الدولة الوطنية المستقلة أعادت إنتاج نفس الممارسات التي كادت ان تعصف بمشروع الاستقلال والتحرير. وبداية من أزمة صائفة 1962 التي تميزت بالصراع على السلطة ، تركز نوع من الثقافة السياسية قائم على القوة والإقصاء ومصادرة كيان الدولة وأجهزتها لخدمة نظام سياسي اجل بناء الدولة وعمل فقط على الحفاظ على السلطة بأي ثمن . ومن ثمة بقيت أزمة الشرعية السياسية دون حل ، ومع كل أزمة تعرفها الجزائر، تلجا النخب القيادية إلى حلول جزئية وانتقالية وتتحاى الحلول السياسية النابعة من المجتمع الذي يشكل مصدر الإرادة العامة ، وصاحب السيادة الوحيد في اختيار قاداته وممثليه الشرعيين ،الذين يسخرون قدراتهم وكفاءاتهم لخدمة الدولة والمجتمع كمصالح عليا . وبالتالي القضاء على أسباب القشل واليأس الذي ترعاه قوى الزبائنية ، وعصب الفساد التي اتخذت من السياسات الربعية أداة لفرض وجودها واستمراريتها. انه واقع تجاوزته الأحداث في عصر الديمقراطيات الحقيقية ، وتكنولوجيا الاتصالات المفتوحة على العالم ، فلا يمكن تجاهل مطالب الإصلاح والتغيير لإعادة تأسيس الدولة، وحسم مسألة من يحكم؟ وكيف؟ على ضوء ما تعبر عنه إرادة المجتمع طبقا لمبادئ الدستور . ولانجاز ذلك يكفي توفر شرط الإرادة السياسية والثقة المتبادلة بين ممثلي السلطة في النظام السياسي والمجتمع . وعندئذ تبنى الدولة على قاعدة اجتماعية منتجة وواعية. تتغذى من قيم ثقافة الدولة واحترام حقوق المواطنين ، وفرض واجباتها تجاههم ، كدولة قانون وسلطات عمومية تتولاها المؤسسات ، تعتمد على الفصل التام بين السلطات ، و تتحدد على أثرها المسؤوليات في اتخاذ القرار، ورسم السياسات العامة في الدولة ككل ، على غرار الدول المتقدمة التي فصلت في مسألة شرعية الحكم وتفرغت لخدمة مجتمعاتها بالعلم والعمل المنتج والجاد ، وذلك تحت الرقابة المتيقظة لنخبها الفكرية والعلمية لكل ما يصدر عن الدولة . وضمن هذا المستوى المقارن من التحليل و المعاينة يمكن تجاوز حالة التوتر والجفاء التي تميز علاقة المجتمع بالدولة ، لان أزمة الشرعية السياسية تشكل السبب الرئيسي والمباشر لباقي الأزمات الأخرى .

هوامش الدراسة

- 40-Benjamin Stora, Zakya Daoud. **Ferhat Abbas** : *Une autre Algérie*. Alger : Ed. Casbah, 1995. P.72.
41-ibid .p72.
42-ibid .pp .73-75.
43-أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية. مرجع سابق، ص 375
44-Mahfoud Kaddache, *L'histoire du Nationalisme Algérien*. Op.cit.p.584.
45-Benjamin Stora, Zakya Daoud .op. cit,p p. 112-115.
46-Mahfoud Kaddache , *L'histoire de Nationalisme Algérien* .op.cit.p644.
47-Benjamin Stora, Zakya Daoud. op. cit,p121
48-Ibid.p.128
49-Ben Youcef Benkhedda. *Les origines du 1^{er} Novembre 1954*, Op.cit. P. 114.
50-Benjamin stora, Zakya Daoud. op. cit, P.P. 179-180.
51-Benjamin Stora, Zakya Daoud. op. cit, P.193.
52-Ibid.p.220.
53- Abderrahmane Bouzida, *Le projet social Algérien "Genèses et évolution"*. Alger : O.P.U. 1991, P. 161.
54-Benjamin Stora, Zakya Daoud. op. cit, P.P. 10-11.
55 -Louis Garros, "Naissance du nationalisme", in *Historama*,n18 s.d.France. P. 30.
56-أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية. مرجع سابق، ص 348
57- يوسف مناصرية ، الاتجاه الثوري في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين العالميتين(1919-1939)، الجزائر :المؤسسة الوطنية للكتاب، 1988، ص 23.
58-Abderrahmane Bouzida, *Le projet social Algérien*. op. cit. P. 150.
59-عبد الله شريط. مع الفكر السياسي الحديث والمجهود الإيديولوجي في الجزائر. مرجع سابق، ص 141.
60- Ben Youcef Ben Khedda, *Les origines du 1^{er} novembre 1954*, Op.cit, P. 111.
61- يحي بوعزيز، الإيديولوجيات السياسية للحركة الوطنية الجزائرية من خلال ثلاثة وثائق جزائرية. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية ، 1986، ص 28.
62-نفس المرجع ، ص 09.
63-Mahfoud Kaddache ; Djilali Sari, *l'Algérie dans l'histoire*. op.cit.p167.
64- محمد عباس، الانداماجيون الجدد ، الكتاب الثالث ، الجزائر : مطبعة دحلب، 1993، ص 39.
65-أحمد الخطيب، حزب الشعب الجزائري، ج.01، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب. 1986، ص 115.
66-Abderrahmane Bouzida, *Le projet social Algérien*. Op.cit.p.139.
21- أحمد محساس، "التعليم والثقافة في الجزائر خلال الحقبة الاستعمارية"، مرجع سابق، ص 76.
22-مصطفى الأشرف، الجزائر: الأمة والمجتمع.(ترجمة: حنفي بن عيسى)،الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1982. ص 243.
23- بوعلام بسايح، "ابن باديس رجل علم وفكر ومصالح ديني" مرجع سابق، ص ص 14-15.
24-Ahmed Mahsas, *Le mouvement révolutionnaire en Algérie* , op. cit P. 78.
25-عبد الله شريط، مع الفكر السياسي الحديث والمجهود الإيديولوجي في الجزائر، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1975، ص 136.
26-Mahfoud Kaddache ; Djilali Sari, *l'Algérie dans l'histoire : la résistance politique (1900-1954), Bouleversement socio-économique. T5 : Alger : OPU, Enal, 1989, P.38.*
27-أحمد الخطيب، جمعية علماء المسلمين الجزائريين ودورها الإصلاحية في الجزائر، مرجع سابق، ص 235.
28- نفس المرجع ، ص 248.
29-عبد الكريم بو الصمصاف، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية(1931-1945)، قسنطينة : دار البعث ، ط. 1، 1981، مرجع سابق، ص 240.
30-Mahfoud Kaddache, *L'histoire du Nationalisme Algérien : Question Nationale et politique Algérienne 1919-1954. T2, Alger : SNED, 1980, P. 586.*
31-عبد الله شريط. مع الفكر السياسي الحديث والمجهود الإيديولوجي في الجزائر. مرجع سابق، ص 137.
راجع في هذا الشأن أيضا :
-مسعودة يحيواي مرائب ، المجتمع المسلم والجماعات الأوربية في جزائر القرن العشرين : حقائق وإيديولوجيات وأساطير ونمطيات. ترجمة(محمد المعراجي) ، المجلدان 1و2، سلسلة المترجمات : وزارة المجاهدين : دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، 2010.
-René Gallissot « *Mouvements Associatifs et Mouvement Social : Le Rapport Etat /Société dans l'histoire Maghrébine* », *Revue INSANYAT*, N08,(1999),PP.5-19.
32-مصطفى الأشرف، الجزائر: الأمة والمجتمع ، مرجع سابق ص 246.
33-أبو القاسم سعد الله، آراء وأبحاث في تاريخ الجزائر. مرجع سابق، ص ص 65-69.
34- أحمد محساس، "التعليم والثقافة في الجزائر خلال الحقبة الاستعمارية"، مرجع سابق، ص ص 64-76.
35-أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية (1900-1930). مرجع سابق ص 167.
36- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية (1900-1930). مرجع سابق. ص 375.
37- نفس المرجع، ص 376.
38-نفس المرجع، ص 176.
39-نفس المرجع، ص 169.

- 67-يوسف مناصرية، الإتجاه الثوري في الحركة الوطنية الجزائرية، مرجع سابق، ص.97.
- 68 Ben Youcef Ben Khedda, *Les origines du 1^{er} novembre 1954*.Op.cit. P.212.
- 68- محمد عباس، الإندهماجيون الجدد ، مرجع سابق ،ص.38.
- 69 Ben Youcef Ben Khedda, *Op.cit*.P.120.
- 70- عبد الرحمان بن ابراهيم العقون، الكفاح القومي والسياسي، مرجع سابق، ص.ص.199-201.
- 71- نفس المرجع السابق، ص.ص.204-205.
- 72- يحي بوعزيز، الإيديولوجيات السياسية للحركة الوطنية الجزائرية، مرجع سابق، ص.ص.160-161.
- 73 Ben Youcef Ben Khedda, *Op.cit*.P.353.
- 74 Ibid, P.P. 170-171.
- 75-Ibid ;PP.172-173
- 76 يحي بوعزيز ، الإيديولوجيات السياسية للحركة الوطنية الجزائرية، مرجع سابق، ص.92.
- 77- Hocine Ait Ahmed, *Mémoire d'un Combattant*, Paris, éd .Sylvie Massinger, 1983, P.77.
- 78-Mohamed Harbi, *La guerre commence en Algérie Bruxelles ; éd : complexe*, 1984.P.18.
- 79-عبد الرحمان بن ابراهيم بن العقون ، الكفاح القومي والسياسي. مرجع سابق. ص.ص.367-368.